سؤال الهوية الافتراضية، بين إكراهات الو اقع وتحديات المستقبل

La question de l'identité virtuelle entre les contraintes de la réalité et les défis de l'avenir

د. هامل بن عيسى*

كلية الآداب واللغات، جامعة الأغواط/الجزائر

تاريخ الارسال:04 /2019/02 تاريخ القبول: 23 /2019/05 تاريخ النشر: 2019/06/16

***

-**الملخص:** لعل مما بات يهدد اليوم الهوية الإسلامية بالتشظي والانشطار ويؤرق معظم المسلمين، في زمن شبكة مواقع التواصل الاجتماعي، هو حالة الاستقطاب الحادة في الأمة الإسلامية، بين الهوية كخصوصية ثقافية والعولمة كخطاب إيديولوجي، في ظل الصراع الشديد، بين السياسة والدين، على الإمساك بزمام الأمور، وسط تزايد درجة التوتر والاحتقان، في العلاقة بين الدولة الوطنية الحديثة وأشكال الهوية التقليدية الأخرى، إلى جانب تعدد الخطابات المتأسلمة حولها، وتنامي فوضى فتاوى الدعاة الجدد، من غير ذوي الاختصاص في الشأن الإسلامي، وما نتج عن كل ذلك، من مظاهر التطرف والإرهاب بمختلف صوره، فضلا على التعصب الطائفي والنعرات العرقية والحروب الأهلية، التي أصبحت تضعف الإحساس بالهوية وتعمل على بلبلة الشعور العام بالانتماء للأوطان والسعي إلى هجرتها، وجدانيا وماديا.

-**الكلمات المفتاحية:** الهوية- العولمة- الدولة-الثقافة-الأمة-الدين.

-**Abstract**:

This paper aims at shedding light on the reality of the Islamic discourse problematic in its positive or negative interaction with the other in the light of the social communication networks as well as virtual open spaces, in addition to what that issue resulted in accelerating changes which turned this discourse itself to a *danger that threatens the nation's identity and works on undermining its cultural and civilised specificity. The crisis that the* Islamic discourse is going through, in its all types, in light of the new technological revolution and the social communication network, is a true crisis, which cannot be denied or unseen in terms of its destructive effects. This would create difficult problems that make it hard to expect the risks they would entail in distorting the image of Islam *in people's minds, and we will try and deal with part of them.*

1-استشكال منهجي:

إذا افترضنا جدلا أن هناك هويات افتراضية بدأت في التشكل، على نحو أصبحت تهدد فيه الهويات التقليدية بالتصدع ولانهيار، فهل بالإمكان الوقوف على الفجوات التي باتت تتخلَّق عبر المسافة الواقعة ما بين الخطاب الهوياتي الافتراضي وبين الهوية القومية في ظل انتقالها من كلياتها العامة إلى التفاصيل المجتمعية المبعثرة والمتصارعة، داخل الحدود الجغرافية الواحدة، في مشهد أصبح تأخذ فيه الهوية التقليدية دور الطريدة، بينما يأخذ خطاب الهوية الافتراضية دور الصيّاد، في عالم إسلامي انقلبت فيه الجغرافيا على التاريخ؟

* الباحث المرسل: hbnssa@yahoo.com

فقد لا يختلف اثنان في أن الهوية العربية الإسلامية، في ظل شبكة مواقع التوصل، أصبحت في خطر، وأن تحديات هذا الخطر تتزايد باطراد، يوما بعد يوم، في زمن أضحت فيه التكنولوجيا عاملا حاسما في ملاحقة الهويات وتقويض خصوصيتها الثقافية، لصالح الحضارة المهيمنة التي أضحت تستغل الفضاءات لافتراضية لتسليع الخطابات العابرة للقارات وتعليبها ثم تسويقها فاستهلاكها على أوسع نطاق، بغرض هدم أبنية العناصر المكونة للهوية وتفكيكها ثم إعادة صياغتها بما يتماشى والنموذج الحضاري البديل عن مرجعياتها الحضارية والثقافية.

2-الهوية: **تأسيس مفاهيمي:**

تعد الهوية من أكثر القضايا جدلا، قديما وحديثا، فهي من المفاهيم التي ليس لها تاريخ. ورغم كثرة ما كتب حولها، لم يتفق الفلاسفة والمفكرون والباحثون، على مفهوم واحد لها، بل تعددت تعريفاتها وأصبحت أكثر تجريدا حتى كادت تكون هي كل شيء ولاشيء في الوقت ذاته. ووصل الأمر ببعضهم إلى حدّ القول بأن الهوية لا وجود لها أصلا[1] لما يطرأ عليها من تطور وتغيرات مع مرور الزمن. ورغم أن الهوية تدل على الواحد في عرف الفلاسفة وأهل المنطق وما عدا ذلك عندهم، فهي الثالث المرفوع الذي لا يحتاج إلى فائض في القول، فإنها تعني عند أهل التصوف، اللاتَعيُّن وأبطن البواطن والغيب الذي لا يصح شهوده للغير[2]. ويعرفها **شريف الجرجاني** في كتاب"**التعريفات**"بأنها"الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النُّواة على الشجرة، في الغيب المطلق"[3]. وهي عند **ابن حزم** "كل ما لم يكن غير الشيء، فهو بعينه؛ إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيطة يعقلها أحد البتة، فما خرج عن أحدهما دخل في الآخر"[4]. وتعني عند **جميل صليبا** كل مميز عن الأغيار[5]. ويصفها قاموس **أكسفورد** بحالة الكينونة المتطابقة بإحكام، أو المتماثلة إلى حدِّ التطابق التام أو التشابه المطلق.[6] أي مطابقة الـ"**أنا**" لنفسها مطابقة تامة جوهرا

---

1 - Eric Dupin .L'hystérie identitaire. Ed. Le Cherche Midi Paris.2004, p9 .

[2] المعجم الوسيط مَجْمَعِ اللُّغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة2004. ،(مادة الهو)

3- الشريف علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص: 257.

[4] ابن حزم: الفصل بين الملل والنحل" في قسم الكلام عن التوحيد وفي التشبيه، الجزء الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صادر بيروت 1404 هـ

[5] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مادة هوية، ط دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1994

6 قاموس أكسفورد:

Oxford Les paradoxes de l'identité démocratique, Paris, Aubier, 1999 (a.identité:)

وعرضا. وهذا المبدأ لا يتم في نظر **الجابري**، إلا عبر نفي الآخر في الثقافة الغربية، ولا يقابله في الفكر الإسلامي إلا مبدأ الـ"**هو هو**". لكن هذا الأخير لا ينطبق، هو الآخر إلا على الله، فهو وحده من لا مثيل له ولا شريك في ألوهيته وربوبيته.

ويبدو من خلال هذه التعريفات، أن لفظ "**الهوية**" في العربية، ليس مشتقا من الضمير"**هو**" حسبما هو شائع لدى أغلب الباحثين، وإنما هو من المصطلحات الفلسفية السريانية الأصل، التي ترجمت إلى اللغة العربية، في العصر العباسي كمقابل للمصطلحين"**استين**"اليونانية و"**هسست**"الفارسية. وهذان المصطلحان يعنيان فعل الكينونة في اللغات الهندوأوروبية، الذي يربط بين الموضوع والمحمول. فيما يدلان في السريانية على"الوجود الجزئي المتغير تحت الحس، في مقابل الحقيقة والماهية المعقولتين". ويذكر سمير عبده أن **الكندي**-الفيلسوف أبا يوسف يعقوب بن إسحاق-كان يصوغ الفعل"**يهوي**" من لفظ الهوية، بمعنى"يوجد هذا الوجود الخاص. ولا يستبعد أن يكون صاغه من"**هوو**"Hwo ومعناه صار ووجد، و"**هوويو**"Hwoyo ومعناه الصيرورة والوجود. ومن المرجح أن يكون **الكندي** قد أخذ ملفوظ "**الهوية**" من اللهجة الشرقية المائلة إلى الفتحHwoyya فاستقام له المبنى والمعنى.[1]

3 - -**تحديات الهوية**:إذا كانت "**الهوية**" تعد من أكثر المفاهيم فقرا، على المستوى الإبستيميولوجي كما رأينا، فإنها في المقابل تتمتع بفعالية إيديولوجية كبرى[2]، تطرح إشكالات عديدة، لاسيما حين تتماهى مع العولمة أو تتحد معها، بصورة أو بأخرى، عند هذا الفريق من الناس أو ذاك، بواسطة عالم ثالث هو العالم لافتراضي أو الاعتباري، وفقا لتوصيف الجابري[3].

إن تساوق الأحداث في السنوات الأخيرة، عبر شبكات مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام الجماهيرية، يدل بوضوح على مدى دينامية الخطاب الإيديولوجي للعولمة، في العالم الإسلامي، وفاعليته في صناعة ردود الأفعال المشروطة، لإثارة انفعالات المسلمين عند الحاجة، وتجييش العواطف لدى المسلمين وتهييج مشاعرهم، بما يجعلهم مجرد ظاهرة صوتية فراغية،

[1]- سمير عبده: السريانية- العربية: الجذور والامتداد، منشورات دار علاء الدين،دمشق،2002ص: 31.

[2] François Laplantine:"Je, nous et les autres" Ed.le Bommier, 1999 http://www.adees.net/Fiches/laplantine.htm

[3] - عابد الجابري، مجلة فكر ونقد العدد 22، العولمة وهاجس الهوية في الغرب، والعولمة والهوية...بين عالمين ص: 12

يتم توظيفها بفعالية لتشكيل إطار موضوعي بستهدف تشتيت الهوية الإسلامية واختزالها في عناصرها الأولية لتسهيل طمسها في ضمير الأمة ووجدانها.

ذلك لأن العولمة من خلال أدواتها في الواقع، لا تعمل - كما يقول **حسن حنفي**- إلا على تصدير صراعات الحضارات، للنطق بما كان مسكوتاً عنه سلفاً، ولتحويل العالم إلى دوائر حضارية متجاورة ومتصارعة، على مستوى الثقافات والأقليات والطوائف، لإخفاء الصراع حول المصالح والثروات، وإلهاء الشعوب الهامشية بثقافاتها التقليدية، وإذكاء نار الفتن بين مكوناتها وتمزيق نسيجها الاجتماعي، مثلما حصل في العراق وسوريا وليبيا ومصر واليمن وسوريا..الخ، بينما قوى المركز تعمل على توسيع الأسواق التجارية، وتتنافس في فائض الإنتاج ،والترويج لمبدأ "مادية الغرب وروحانية الشرق"، بغرض توحيد منظومة القيم اليهودية المسيحية لخوض غمار ما بات يسمى "صراع الحضارات"، ومواجهة الحضارة الإسلامية والبوذية والكنفوشوسية، والذي كان من أبرز نتائجه تكتل طوائف اليهودية والمسيحية في كيان واحد، وعملها على حسم الصراع لصالحها باعتبارها الأقوى اقتصاديا والأكثر تقدما علميا وتكنولوجيا.[1]

انتهت بعض المراكز الإستراتيجية في الغرب وفي مقدمتها مركز التاريخ الثقافي للمجتمعات المعاصرة (CHCSC)، إلى نتيجة مفادها أن الهوية الإسلامية في توسع مستمر، وأن هنالك تناقصا، بين السواد الأعظم، من المسلمين، في معدلات الأمية من جهة، وتزايد مستويات الوعي الجماعي الديني وفشل المخططات الغربية من جهة أخرى في ظل تطور تكنولوجيا الاتصالات وشبكة التواصل الاجتماعي وشيوعها، مما أدى إلى توحيد طبيعة الشعور بالانتماء إلى الكينونة الواحدة بين المسلمين، حيث لم تعد وحدة الشعور بالانتماء، تشمل الدول ذات الغالبية المسلمة، من المغرب إلى اندونيسيا وحسب، وإنما أصبحت تشمل حتى الجاليات الإسلامية، بجيلها الثاني والثالث في أوربا وأمريكا الشمالية، وغيرها. وترى هذه المراكز أن وتيرة نمو وتطور هذا الشعور، على هذا النحو، بفضل شبكات مواقع التواصل الاجتماعي، سيهدد الهوية الغربية، عاجلا أم آجلا، وقد يؤدي إلى أسلمة كثير من الدول الغربية، وهو ما يمثل-في رأيها-ضربة قوية

1- حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، بحث ضمن كتاب العولمة والهوية، المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون، منشورات جامعة فلادليفيا، الطبعة الأولى 1999م، ص: 33.

للعالم المتحضر، في القرن الحادي والعشرين.[1] وفي هذا الإطار، يشير **ممدوح الشيخ** إلى أن هناك اهتماما محموما في الغرب، "بالتحولات الديموغرافية وبخاصة في أوروبا، إذ توقع خبير الشؤون الإسلامية والشرق- أوسطية، المؤرخ **برنارد لويس** أن تصبح أوروبا إسلامية، قبل نهاية القرن الحالي."[2].

5-الخطاب الإسلاموفوبي والهوية:

أصبح الخطاب الديني المؤدلج يُستغل على نحو واسع، للحيلولة دون التصاعد المستمر لانتشار الظاهرة الإسلامية في العالم، بغرض الحد من تزايد اعتناق الأغيار للإسلام، ولذلك راحت مراكز الإستراتيجية في معظم الدول الغربية، تركز على قضايا حساسة، ومثيرة للجدل، في العالم الإسلامي، كقضية المرأة والديمقراطية وحقوق الإنسان والأقليات الدينية والإثنية والمثلية الجنسية والسحاق، بغية تشويه الهوية الإسلامية، وتفكيكها، بحجة تعارضها مع الحضارة الغربية، وعدم قدرتها على الانسجام مع توجهات ثقافتها المادية. ولم يكن هناك سبيل لخنق الثقافة العربية الإسلامية وإيقافها، بوصفها خطرا زاحفا على الغرب، إلا اعتماد إستراتيجية خطاب الإسلاموفوبيا مِعْولاً لضرب الهوية في مقتل..

وقد اخترت في هذه الدراسة المرأة أنموذجا، لكونها تعكس أكثر القضايا حساسية، في العالم الإسلامي، لنرى كيف تم استغلالها في الخطاب الاسلاموفوبي،عبر شبكة التواصل الاجتماعي، لتشويه صورة الهوية في الوعي الإسلامي على يد بعض الوعاظ والدعاة الجدد، ممن أصبح يُستخدم بعضهم كرأس حربة في حملات تشويه محمومة لصورة الإسلام في الأذهان.

وقد حددنا مجتمع الدراسة باختيار عينة افتراضية جزئية منه في إطار شبكة مواقع التوصل الاجتماعي باعتبارها فضاء عاما افتراضيا –حسب هابرماس- تدور فيه المساجلات وتتشكل فيه الآراء والمواقف حول القضايا التي تُجسد اهتمامات الناس، ومنها القضايا الدينية، حيث صنفنا مجتمع الدعاة إلى صنفين بناء على تعريف "سيرجي بروكس" للمجتمع الافتراضي بأنه:"مجموعة أفراد يستخدمون بعض خدمات الانترنت الاتصالية (خطابات ،منتديات المحادثة، حلقات النقاش، أو مجموعات الحوار ...) والذين تنشأ بينهم علاقة انتماء إلى جماعة

[1] -انظر دراسة في الموضوع عن مركز:"بروكينجز للدراسات الإستراتيجية بتاريخ 2002.

[2] -المؤرخ برنارد لويس: أوروبا ستصبح مسلمة في نهاية القرن الحالي. (انظر مقال لـ:ممدوح الشيخ على موقع: غسان أبو حمد *http://www.almoughtarib.com*).

واحدة d' lien appurtenance ويتقاسمون نفس الأذواق، القيم، ولديهم اهتمامات وأهداف مشتركة [1].

ارتأينا أن نقسم هؤلاء الوعاظ والدعاة إلى صنفين؛ صنف ليبرالي يَدَّعي تطوير وتجديد الخطاب الديني، على أنقاض الحدود الشرعية بإسقاط بعض الفرائض الدينية، كالحجاب والميراث وإباحة الخمر والزنا، والدعوة لإلغاء مادة الدين، من الدراسة واستبدالها بمبادئ منظمات حقوق الإنسان التي تركز على شؤون المرأة، وفق اتفاقيات "سيداو"، كالزواج والطلاق والحرية والمساواة، بين الجنسين وشرعنة زواج المسلمة بغير المسلم. وليس هذا فقط، ولكن أن يطلق لها الحبل على الغارب، بدعوى الحرية والمساواة بينها وبين الرجل، إلى جانب العمل على إباحة المثلية الجنسية والسحاق وغيره .. بحجة مواكبة العصر، وصولا إلى فتاوى، ليس أقلها المطالبة بحق إمامة المرأة للرجال في المساجد.

ويتميز هذا الخطاب بافتقاره -حسب كثير من المختصين- للعلم الشرعي أو العلم بالنصوص الشرعية وأوجه دلالاتها، إلى جانب اعتماده على تأويلات مغلوطة للآيات القرآنية، واسترساله في الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة، واستخدامه للهجات المحلية على حساب اللغة العربية الفصيحة، ويطرح طرحاً مهادناً لخطاب العولمة في محاولة للتماهي مع أفكارها الأساسية ومبادئها الكبرى. وربما أفضل من يمثل هذا التيار أصحاب البدلات الأنيقة وحليقي اللحى ، من رجال الأعمال الدعاة، ممن أصبح يطلق عليهم"الدعاة الجدد" أو "دعاة إسلام السوق" من أمثال (عمرو خالد، ياسين رشدي،وأسامة نادي الصيد، وسيم يوسف. .الخ) والدعاة المأجورين (خالد الجندي، مثلا) . فالدعاة الجدد عندئذ، ليسوا أولئك الدعاة القدماء الأزهريين الذين يلتزمون بالزي التقليدي، ويخاطبون الناس بلغة تراثية ، ويخوضون في موضوعات لا تهم السامع بقدر ما تهم المتحدث نفسه، وإنما هم أولئك الذين ينتمون بالروح وبالأسلوب لمبشري البروتستانتية الجديدة في الاسلام ويدغدقون عواطف الشباب، ويسكنون الفيلات الأثيرة ويملكون السيارات الفارهة، ويُستقبَلون في بلاطات الأمراء الملوك والرؤساء، لاسيما في دول الخليج.

[1] - Serge Broulx : les communauté virtuelle construisent-elle du lien social ? » Colloque international sur : l'organisation medias, dispositifs médiatiques, sémiotique et des médiations de l'organisation, LYON, Université jean moulin19-20/11/2004 .

ومن هنا، يمكن اعتبار هذا الخطاب جزءا، من نسق أكبر، هو نسق مجتمع العولمة الاستهلاكي، لارتباطه عضوياً بالمستفيدين منه رأسا، على حساب ضحاياه، من فقراء ومهمشين. وتلك حقيقة، يندر أن تُدرك تداعياتها، حين النظر إلى الوضعية المعاصرة للتدين، في الفضاء الإسلامي العام. ومن العبث اختزال هذا الخطاب، في مفردات فضفاضة عن عمليات متتابعة لأسلمة المجتمع، دونما إشارة إلى دينامية مواقع التواصل الاجتماعي، في مثل هذه العمليات، القائمة على جدلية التأثير والتأثر المتبادل بينها، وبين ظواهر السلطة السياسية. فحين يشكل التوظيف السياسي الاحتجاجي للمرجعية الدينية، أساس أهم فعاليات المعارضة، يتحالف الوعظ الديني المشرعن، لأنماط الاستهلاك، مع الأوليغارشيات الحاكمة والمجموعات المستفيدة من مقدرات الدولة.

أما الصنف الثاني من الدعاة، فهو صنف يوصف بالمحافظ، ويشكل أبرز معول هدم تعتمده العولمة لتشويه الإسلام والمسلمين، باعتباره صنفا، يتميز بعدائيته للحداثة والمعاصرة. فهو خطاب مفرط في اضطهاده للمرأة وممارسة أقسى وأبشع أشكال التمييز ضدها، كما أنه منتج للعنف بكل أشكاله المادية والرمزية. ولعل السلفية المتشددة هي أفضل من يمثل هذا الاتجاه، ومن أبرز رواد هذا التيار، نذكر الشيخ أبو إسحاق الحويني، والشيخ العبيكان .. وعايض القرني قبل توبته عن الوهابية بأسابيع).

وقد خلصت نتيجة إحدى الدراسات[1] إلى أن ظاهرة التطرف، التي صاغت إيديولوجيا بعض الخطابات الدينية، في العالم الإسلامي المعاصر، لم تكن لها جذور، في البنى الاجتماعية والثقافية فحسب، بل امتدادات في البنية النفسية العميقة، الملتبسة بالدين لهذه الفئة من الخطباء، وتحديداً في نفسية من يعانون من" **فوبيا الخصوصية** " وهوس الخوف الشديد على" **الهوية الشخصية** " أيضا! وهو ما يعني أن "**فوبيا الخصوصية**" تستند إلى خطاب لاعقلاني، يفتقر إلى الوعي التاريخي بالماضي والحاضر والمستقبل على حد سواء. فحين يلجأ هذا الخطاب، تحت ضغوط نفسية واجتماعية، وربما مرضية حتى، إلى نصوص من التراث، تتصف بالإلغاز والغموض واستحضارها في الحاضر، بدعوى مواجهة العولمة والمحافظة على الهوية الإسلامية، في عملية تختزل المسافة الزمنية، التي تفصلنا عن هذه النصوص والظروف الملابسات الاجتماعية، التي أحاطت بها، فإنه يدفع حركة التاريخ، ليس إلى الأمام، بل إلى الخلف، لا بالمعنى

[1]- الظاهري، خالد بن صالح بن ناهض: دور التربية الإسلامية في الإرهاب. دار عالم الكتب، الرياض: 2002.ص: 61،62

المكاني للكلمة فحسب، بل بالبعد الزمني أيضا، لتصدق عليه عبارة زكي نجيب محمود"ومن التراث ما يعرقل".[1]

وقمين بالإشارة في هذا الصدد، إلى نوعية النصوص التي يفضل بعض الدعاة المتشددين الاستشهاد بها مبتورة، خارج سياقاتها، على نحو"ويل للمصلين" في معرض دفاعهم عن الإسلام، كما يزعمون، ومنها ما ورد في الجزء الثاني من كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي بشأن المرأة، كقوله:" الجامع في المرأة أن تكون قاعدة في مقر بيتها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تخرج من بيتها، ولا ترى الرجال ولا يراها الرجال، فإذا اضطرت للخروج بإذن زوجها، خرجت خفية في هيئة رثة".[2]

وفيما يخص العلاقة الزوجية، لم يجدوا ما يستشهدون به سوى قوله: "...والنكاح نوع رقّ، فهي رقيقة له. فعليها طاعة الزوج مطلقا...وعليها أن تقدم حقه وحق أقاربه على حقها وحق أقاربها، وعليها أن تكون مستعدة لزوجها، في جميع أحواله، ليتمتع بها. والرجل هو السيد المطاع، لا يشاور المرأة، فإذا شاورها خالفها، لأن في خلافها بركة. وكيد النساء عظيم"، وقوله: «..وسوء الخلق وقلة العقل من صفاتهن ، فعلى الرجل أن يكون حذراً من هن أما المرأة الصالحة فيهن، فهي كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب "[3].

هكذا إذن، يُلقي فقه التشدد وفقهاء المراحيض، كل الجرم على المرأة وحدها، سواء كان معتدىً عليها، جنسياً أو بالتراضي. ويبرئ الزاني ويدعوه للاحتساب الى الله؟ !! ومن الغريب أن هؤلاء المتشددين يختلفون في تحريم الغناء والموسيقى وقيادة المرأة للسيارة، لكنهم يتفقون على إهانة المرأة وممارسة التمييز ضدها وانتهاك حقوقها في حياتها ومماتها، ظلما وعدوانا تحت مظلة الإسلام، والإسلام بريء مما يدَّعُون !!

الأمر الذي وفَّرَ الذرائع لأعداء الأمة الإسلامية، وقدم لهم الحجج المجانية لعولمة ثقافتها، بغرض وصف ثقافة الأمة بالجهل والأمية والتخلف والانحطاط، واعتبارها جرما بأنها المسؤولة عن تشكيل الإطار المرجعي للخصوصية الثقافية لهؤلاء الدعاة، وأنها هي، التي صاغت ظلمات الصورة الأشد قتامة في زمن العولمة، والتي تعكسها في الحاضر نصوص، قيلت قبل عشرات

[1] -زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، ط1، 1976، القاهرة ص: 150.

[2] - الإمام الغزالي إحياء علوم الدين.ج2. دار الثقافة، الجزائر1991، ص: 120

[3]-المرجع السابق، ص: 120،118.

القرون، من قبيل النصوص المنسوبة إلى الإمام **شمس الدين الذهبي**، الذي أصدر في كتابه الشهير "**الكبائر**"، فتواه المدويّة التي ما زالت تداعياتها السلبية، تلاحق المرأة حتى اليوم، باعتباره :"صوت المرأة عورة، بل كلها عورة، ويجب حبسها في البيوت حبساً مطلقاً، لأنها إذا خرجت، يكون الشيطان بها وفيها ومعها. "[1] وينسب أيضا إلى الإمام ابن **تيمية** قوله، أن المرأة في مقام العبد، فكلاهما مملوك لغيره؛ العبد لسيده والمرأة لبعلها أو أهلها[2]. هذا فضلا على فتاوى أشد غرابة تبيح للزوج أن يأكل زوجته إذا جاع وخشي على نفسه من الهلاك..والسؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان، هل يمكن للعالم الإسلامي مواجهة المخاطر المحدقة بهويته بهكذا نمط من الخطاب الديني في زمن العوالم الافتراضية؟!

فمن الواضح، أن هذين النوعين من الخطاب، أصبحا يشكلان ظاهرة مدمرة للهوية الإسلامية، والدولة الوطنية أيضا، في ظل مواقع التواصل الاجتماعي. ومن الطريف المأساوي، أن هناك اطرادا عكسيا، بين انتشار هذه الخطابات والفتاوى، والتقليص الشديد للمؤسسات الرسمية، المتخصصة في الشأن الإسلامي، ومراكز البحوث في معظم الدول العربية والإسلامية، لإدارة شؤون المسلمين، وللتصدي لمظاهر التدخل المستفحل في الحياة اليومية للمسلم العادي، والتي تسعى جاهدة لقولبة فكره وصياغة عقله وهندسة سلوكه ولباسه في قوالب، يعتبرها هذا الطرف أو ذاك، من صميم الهوية الإسلامية. وهو ما يؤدي إلى تزايد أشكال التطرف المادية والرمزية داخل المجتمعات، مما يدفعها نحو المصير المجهول.

6-النتائج:

-إن الهوية هي عنوان الكينونة، الذي تعرف به الذات الفردية والجماعية، وأن شبكة مواقع التواصل الاجتماعي، باتت تشكل تحديات صعبة تواجه الأمة العربية والإسلامية، بما تحمله من قدرة على تنميط السلوكيات الاجتماعية وإخضاعها لنظام قيم وأنماط سلوك سائدة في المجتمعات الغربية.

-إن غياب استراتيجية موحدة لمأسسة النخب في العالم الإسلامي، لمواجهة التحديات على مستوى الفضاءات الافتراضية المفتوحة، قد أدى إلى فشل هذه النخب واندثار مشاريعها، في تحديد رؤية استشرافية إطار فكري، يعمل على التوفيق بين الهوية والحداثة، والأصالة

[1] - شمس الدين الذهبي، الكبائر تحقيق، محي الدين مستو الناشر: مكتبه دار التراث1998، ص: 203

[2] - (صحيفة الحياة)العدد 1-14168 يناير 2002.

والمعاصرة، وهو ما أحدث شرخا شاقوليا بين تيارين على مستوى النخب؛ تيار جامد، متشبث بالهوية الثقافية كمنظومة ساكنة للقيم، مجاوزة لحركة التاريخ. وتيار تغريبي يدعو إلى القطيعة مع التراث، باعتبار الهوية نظاما أو نموذجا اجتماعيا متغيرا يخضع لحتمية التطور وأن الهوية ينبغي أن تخضع للحداثة لا العكس، إذا ما رامت المجتمعات العربية الإسلامية اعتناق الفكر الحداثي.

-تراجع سيادة الدول العربية الإسلامية وتحولها إلى مجرد كيانات مضطربة، تحكمها أوليغارشيات وأنظمة أمنية، تحمي وتخدم مصالح الشركات متعددة الجنسيات التي تمتلك الامبراطوريات الإعلامية الكبرى والفضاءات الافتراضية العظمى، التي تعمل ليلا نهارا، على إعادة تشكيل وعي الجماهير وصناعة رأي عام يتماشى والثقافة الاستهلاكية على حساب الهويات والخصوصيات المحلية.

-غياب استراتيجية لتوحيد مرجعيات الخطاب الديني ضمن إطار يحافظ على هوية الأمة ويرفع من شأنها بين الأمم، مما جعل هذا الخطاب يستحيل سلاحا فتاكا في أيدي أعداء الأمة، حيث استغل لضربها في الصميم من خلال ضرب أهم مكون من مكونات الهوية، وهو دينها. وما شيوع الخطابات الدينية الغرائبية، المثيرة للسخرية والتندر بالمثل العليا الدينية وتشويه العلماء ورجال الدين، والتي تحط من شأن الأمة الإسلامية، وانتشارها على أوسع نطاق عبر مواقع التواصل الاجتماعي إلا دليل صارخ على مدى خبث الاستراتيجيات المعتمدة لتشويه صورة الإسلام في الأذهان، محليا وعالميا، للحيلولة دون اعتناقه من الأغيار.

-التشكيك في قدر ة الخطاب الديني على معالجة المشكلات المطروحة ،مما أدى به إلى الشعور بالسلبية، فتوارى إلى خلف وانكفأ على الذات، بدلا من المشاركة الإيجابية الفعالة بالنصح والتوجيه في لحظة الاستحقاقات المجتمعية الكبرى، وهو ما يمكن ملاحظته في سياق الحراك الشعبي الأخير في كل من الجزائر والسودان.

7--مناقشة النتائج:

من الواضح، مما تقدم أن مفهوم الهوية الإسلامية لا يخرج عن الجهاز المفاهيمي للهوية، إلا من حيث كونها "**تيمة**" دينية بامتياز، فرضت نفسها كنواة ثابتة مستمرة عبر العصور. والحقيقة، أن الهوية الإسلامية، لكن التطور التاريخي للأمة الإسلامية، قد أنتج أشكالا متعددة للهوية بمرجعيات مختلفة، نتيجة الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي وما تلاه من تحولات، شملت جميع

المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسة. يرى **برنارد لويس** في هذا السياق، وأن للأفكار الغربية، المتعلقة بمكونات الهوية العامة، تأثيرا واضحا لا يمكن إغفاله، كفكرة الوطن والأمة والشعب وغيرها في عملية خلق الوعي بالهوية لدى المسلمين، مما أسفر عن عملية تكوين مفاهيم جديدة حول العديد من القضايا، المرتبطة بالهوية، كروح الأمة وحدودها الجنسية والمواطنة وحقوقها وواجباتها، إذ لم تكن سوى استعارة مباشرة، لتلك المفاهيم والتنظيمات المتعلقة بها من الأوروبيين، ورغم إعطائها صبغة محلية، فإن الشعوب الإسلامية، قد استعارت العديد من تكوين هويتها وفهمها لما يجب أن تمثله تلك العناصر، بما في ذلك الهوية الوطنية أو القومية، من تجارب شعوب أوروبا الغربية.[1]

8-خلاصة:

وفي الأخير، يمكن القول بأن الدولة الوطنية، ستبقى الركيزة الأساسية في المحافظة على الهوية، ومواجهة تحديات العصر الرقمي، من خلال مؤسساتها الرسمية والمدنية. لكن ليس الدولة بمفهومها الريعي البيروقراطي، القائم على مبدأ الشعبوية، التي يجعل من الدولة كيانا محتلا من قبل الرعاء والدهماء والجهلة من غير ذوي الكفاءات وعديمي المستوى التعليمي، وإنما تلك التي تستند إلى نخبها في مختلف المجالات العلمية والعلمية والتقنية والفنية. ذلك لأن النخبة في الدولة هي أشبه بالرأس من الجسد، حيث لا يمكن أن نتصور ، بأي حال، إنسانا بلا رأس ينبض بالحياة ، كما ينبغي الإسراع لإعادة النظر جذريا، في المنظومتين التعليمتين، التربوية والجامعية والمؤسسات الثقافية والدينية، وتأهيل القوى البشرية وعناصر التَّماس فيه، بما يتساوق مع ثورة الاتصالات ويتناسب إيجابيا مع منظومتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، ويكرس الهوية الوطنية، مفهوما وماهية ومحتوى، بغية الوصول إلى تشكيل رأس مال ثقافي ومعرفي وعلمي وتقني، يحفظ للأمة كرامتها وهيبتها بين الأمم، وينقلها من الحالة التي هي عليها إلى حالة أفضل وأرقى.، وذلك بوضع مشروع مجتمع حضاري ووطني، واضح المعالم والحدود، في إطار القيم الإسلامية المنفتحة على مختلف الثقافات والحضارات.

-الهوامش:

[1] - برنارد لويس: الهويات المتعددة في الشرق الأوسط، ترجمة وتعليق منصور احمد بوخميس، مجلة عالم الفكر، المجلد29، الكويت2001، ص: 174.

-الكتب والمجلات:

- إيريك هوبسباوم: عصر الرأسمال، ت: محمد سعيد طالب، دار الفارابي، بيروت،1986.

- برنارد لويس: الهويات المتعددة في الشرق الاوسط، ترجمة وتعليق منصور احمد بوخميس ،مجلة عالم الفكر،المجلد29،الكويت2001.

- محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخذ. طاب الاديولوجي، مجلة فكر ونقد، ع 22 ، 2010

-جلال أمين: العولمة والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1،.1998

- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مادة هوية، ط دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1994

- ابن حزم: الفصل بين الملل والنحل" في قسم الكلام عن التوحيد وفي التشبيه، الجزء الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صادر بيروت 1404 هـ

-حسن حنفي، الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، بحث ضمن كتاب العولمة والهوية، المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون، منشورات جامعة فلادليفيا، الطبعة الأولى 1999..

-رضوان السيد: مسألة الحضارة والعلاقة بين الحضارات لدى المثقفين العرب في الأزمنة الحديثة ضمن الصراع على الإسلام الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية، دار الكتاب العربي بيروت سنة 2004.

–زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، ط1، 1976، القاهرة ص150

-الظاهري، خالد بن صالح بن ناهض: دور التربية الإسلامية في الإرهاب. دار عالم الكتب، الرياض: 2002.

- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي-ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق2002.

- سمير عبده: السريانية-العربية: الجذور والامتداد، منشورات دار علاء الدين، دمشق،2002.

- سيار الجميل: العولمة: اختراق الغرب للقوميات الآسيوية، متغيرات النظام الدولي القادم :رؤية مستقبلية". المستقبل العربي، العدد 127. مارس 1997. - -

- الشريف علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.

- شمس الدين الذهبي: الكبائر تحقيق، محيي الدين مستو الناشر: مكتبه دار التراث1998.

- الإمام الغزالي إحياء علوم الدين.ج2. دار الثقافة، الجزائر1991،ص120

-Eric Dupin .L'hystérie identitaire. Ed. Le Cherche Midi Paris.2004, . -

-F.Furet.Le passé d'une illusion Essai sur l'idée communiste. En 20 siècle .Paris Robert .Laffont/Calmann-Lévy.1995.